في السيرة الذاتية
من منظور إسلامي

حين يُتحدث عن الصدق عند الكاتب المسلم فإن الأمر مختلف جدا، لا سيما في فن السيرة الذاتية وما شاكلها من الفنون المعتمدة على الصدق، وربما تم بين الطرفين (الكاتب – القارئ) ما يشبه التواثق على قول الحق والصدق، لأن المسلم صادق يحب الصدق، ويلتزمه ظاهرا وباطنا في أقواله وأفعاله.

أحمد علي آل مريع - السعودية

والمسلم لا ينظر إلى الصدق خلقا فاضلا يجب التخلق به لا غير، ولكنه يذهب إلى ابعد من ذلك، يذهب إلى أن الصدق من متممات إيمانه، ومكملات إسلامه، إذ أمر الله تعالى به، وأثنى على المتصفين به فقال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ (التوبة)، كما أمر به رسول الله ﷺ فقال: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق، حتى يكتب عند الله صديقا. وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[1].

والثقة في الكاتب المسلم لا تعني التسليم المطلق بكل ما يقول، بل المسلم كيس فطن يتثبت مما يقرأ أو يسمع وبخاصة ما يتصل من الكلام بالناس، وبعض الأمور المهمة التي ينبني عليها تصور أو تقدير، أو يكون الكاتب فيها أهلا للانحراف والزيغ عن الحق لشبهة معروفة عنه، أو منافسة مع من يحكي عنه أو معاداة له. والله قد أمرنا بالتثبت والتبين فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ (الحجرات).

غير أن المسلم على الجملة – ولا سيما فيما يخصه من نسب ودراسة وولادة ومشاهدات وصعوبات واجهته، وعقبات تجاوزها ومكاسب حققها ...إلخ- مصدق

ومؤتمن فيما يحكيه، لأنه المرجع الأقرب، ولأنه مأمور بقول الحق، فإذا ما عاهد القارئ أو السامع على الصدق – كما يقع غالبا من كتاب السير – كان ذلك بحقه آكد وأوجب. وهذا خلافا لغير المسلم الذي يستمد وازعه الداخلي – في الغالب – من باعثه إلى الكتابة، ويسخر ما يصدر عنه لصالح هذا الباعث حتى تتحقق له غاياته ولو كان تحققها على حساب الحقيقة.

ولكن على كاتب السيرة الذاتية المسلم أن يتبين الحدود التي أذن فيها الشارع بالمصارحة ونهى عن تجاوزها، فيوازن بين الجهر بالصدق وإظهار الخفي، وبين المحافظة على ستر الله الذي يستتر به المسلم، ويسأله تعالى سبوغه ودوامه عليه في الدنيا والآخرة (فمن الحق ما يرذل قوله، وتنبو الأذن عن سماعه)[٢]، ومن الصدق ما هو اقرب إلى الفضيحة. ولس مطلوبا من المسلم الذي عليه أن يصلح زلاته فيما بينه وبين ربه فضح نفسه على رؤوس الأشهاد، أو أن يسجل إقرارا يساق بموجبه إلى القضاء. بل الإسلام ينكر ذلك ويمقته، ويراه إثما كبيرا وفتنة أشد من القتل، لأن فيه إيقاظا للهاجع من الغرائز، وتسهيلا للمنكر بتوضيح سبله، وإشاعة للفواحش في المجتمع المسلم، وتشويها لاستقامة أهله ومروءاتهم، وفي ذلك تمهيد لأصحاب الرذائل للظهور برذائلهم.

قال تبارك اسمه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ (النور).

وقال تعالى:﴿ لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ (النساء)

وقال عليه الصلاة والسلام: (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح، وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه)[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: (من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله، فإنه من يبد لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب الله)[٤].

وما تقدم من النصوص فيه تحريم شديد للجهر بما اقترفه الإنسان من الرذائل في حياته، لا سيما ما اتصل منها بالمنكرات المغلظ في تحريمها، أو الكبائر الموجبة للعن والطرد من رحمة الله أو للحدود الشرعية ك: شرب الخمر والزنا واللواط ولعب الميسر والربا وماشابهها...

أما بالنسبة للحديث عن الذات والثناء عليها، وذكر محاسنها، وتسجيل مآثرها، والإشارة إلى ما حققته من سبق، وما اختصت به من أسباب التميز والفرادة في مجال من المجالات، فأمر مباح في الأصل ما دام لا يخرج عن الصدق لأنه لا دليل صريح على تحريمه. على أنه قد يكون مندوبا إليه إذا قصد به الكاتب أو المتحدث حمد المتفضل تبارك اسمه، وشكره على توفيقه وامتنانه، وذكر ما به من النعمة اعترافا بسابغ عطائه وجزيل هبته، لأمره تبارك وتعالى بذلك، فقال:﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة٤٧)، وقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى١١).

ويشترط في جواز الحديث عن النفس ألا يفضي إلى منكر كالغرور والعجب بالنفس والكذب. فالحديث عن الذات مزلق خطير يفقد الكاتب التحكم في نصاب الحقيقة، فتضطرب بين يديه الأمور، وتستأثر الرغبة في الاستكثار من الحسنات، والتزيد من المآثر، والمبالغة في بهرجة النفس وتلميعها بلبه، وتأخذه سكرة الأمجاد من عالم الواقع إلى لذيذ الأحلام والأوهام، وينسى أنه مسؤول أمام الله ومؤتمن على كل كلمة يقولها أو يكتبها. وقد جاء النهي الإلهي الصريح عن التمدح بغير الحق، والثناء على النفس بغير ما تستحقه، فقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ،كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف٢،٣)، ويقول تبارك وتعالى:﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (آل عمران١٨٨). كما غلظ الرسول عليه الصلاة والسلام في الإقدام على

ذلك، روت أسماء رضي الله عنها فقالت: (إن امرأة قالت: يا رسول الله إن لي ضرة فهل عليّ جناح أن أتشبع(•) من زوجي غير الذي يعطيني ؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)(••)(٥).

وما جاء في النهي عن تزكية النفس في قوله تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا، انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء٤،٥٠)، وقوله تعالى:﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾(النجم٣٢)، فالمراد بها تزكية النفس والشهادة لها بالإيمان والأعمال الدينية الصالحة والمكانة عند الخالق تبارك وتعالى، والمنزلة في الآخرة، كما يفهم من سياق الآيتين الكريمتين اللتين نهتا عن ذلك. وقد ثبت عن رسول اللهﷺ أنه قال: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع(٦).

وكان عليه الصلاة والسلام يحضر مجالس الوفود ويستمع إلى مفاخراتها فلا ينكر عليهم، وربما أمر أصحابه بأن يلتمسوا خطيبا يجيب خطيب القوم وشاعرا يفاخر شاعرهم (٧) ولم يحبس كثير من سلف الأمة وفقهائها أقلامهم عن الثناء على أنفسهم بالحق، حين ألمحوا إلى بعض تجاربهم الروحية والعملية وكفاحهم في تحصيل العلم وتحقيق مسائله كالأئمة الغزالي(٨) والسيوطي(٩) وابن حزم الظاهري(١٠) وابن الجوزي(١١) – رحمهم الله جميعا- مما يدل على أن في الأمر رخصة وسعة.

ويحسن التنبيه على أنه ليس من الكذب مخالفة الواقع غلطا أو نسيانا أو اختلاطا كتحريف أسماء الأشخاص والمواقع أو تبديلها أو الخلط بين الأزمان وبعض الأحداث، لأنه من خداع الذاكرة الذي لا يسلم منه أحد. وليس من الكذب أيضا ما صدر عن جزم واعتقاد بصدق ما يقوله، كأن يقول: وقع كذا وكذا لأجل كذا وكذا، لأنه لم يحدث بالكذب، ولكن حدث بالصدق الذي يعتقده أو يغلب على ظنه صحته، والصدق شيء نسبي. ولو جاز لنا وصف الوهم والغلط والخطأ بـ: الكذب، لجاز لنا وصف القاضي العادل الذي يحكم بين اثنين فيقضي بمال أحدهما أو متاعه لصاحبه بناء على ما سمعه من شهود الزور الذين لم يطلع على كذبهم بالظلم والعدوان، وهذا لا يكون إلا مع القصد والتعمد(١٢). وكذلك الكذب لا يطلق إلا مع تعمد الإساءة أو التضليل أو التغيير.

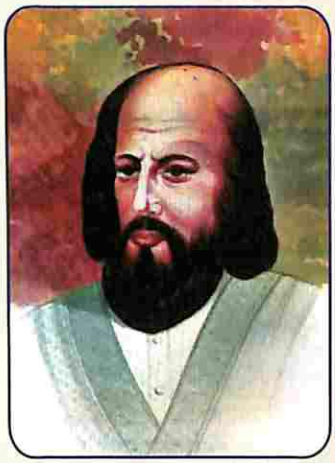
الغزالي

وعلى كاتب السيرة أن يتحقق فيما ينقله أو يحكيه عن غيره، وأن يكون دقيقا في نسبة الأقوال وتوثيق المروي، فيميز بين ما رآه، وما سمعه، أو وقف على تفصيلاته بنفسه، وبين ما تناهى إليه خبره عن غير معانيه أو سماع مباشر، حتى لا يؤخذ بجريرة غيره، فيرمى بالكذب وهو منه بريء، لأنه مأمور ألا يعرض نفسه للشبهات.

وحين يريد كاتب السيرة أن يصدر حكما على شخصية معروفة اتصل بها، فعليه أن يتثبت من الأخبار التي رويت له عنها، ولا يحكي عنها شيئا يضر بها عند السامع أو القارئ إلا بالحق. وعليه ألا يمدح أحدا إلا بما فيه ولا يظلمه فيرميه ببهتان، ولا يغض عن جانب لحساب جانب، ولا يجامل قريبا لقرابته ولا يرفعه فوق منزلته، ولا يذم عدوا ولا يبخسه حقه ولو كان شيئا يسيرا، فالإنصاف والعدل مطلوب ومأمور به مع الجميع. وقد قررت الآيات الكريمات هذا المبدأ الإسلامي

العظيم من مثل قوله تعالى: ﴿ ... وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ... ﴾ (المائدة).

وقمين بمن كان ذلك سمته ومنهجه أن يكون الحق بعينه مطلوبه وغايته. فلا يتلون له بتلون الدوافع ولا يتحرف بتحرف الواقع والمكاسب. وقمين أيضا بمن كان وازعه بين جنبيه يحاسبه من داخله بأن تكون سيرته الذاتية - إذا رزق أصالة التعبير وجودة التصوير وحسن التحليل والتفسير - من أصدق الفنون والآداب وأقربها إلى الواقع وأقواها أثرا، لأنها حينئذ تصبح بحق ملتقى للصدق التاريخي بالصدق الفني الأصيل ■

الهوامش:

(١) صحيح البخاري: ٥٢٣/١٠ حديث رقم (٦٠٩٤) بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

(٢) أحمد أمين: حياتي: ٤.

(٣) صحيح البخاري: ٥٠١/١٠ حديث رقم (٦٠٦٩) بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني.

(٤) الإمام مالك بن أنس: الموطأ: ٤٣/٣ (بشرح تنوير الحوالك للسيوطي).

(●) أي أنها تريد أن تظهر أنها أرفع قدرا عند زوجها لتغيظ ضرتها.

(●●) المتشبع هو (المظهر للشبع وليس بشبعان. وثوبي زور: صاحب زور، والمراد الذي يزور على الناس ويكذب عليهم، ويدعي أن له فضيلة ليست له ليغتر به الناس.

(٥) صحيح مسلم: ١٦٨١/٣ حديث رقم (١٢٧).

(٦) صحيح مسلم: ١٧٨٢/٤ حديث رقم (٢٢٧٨).

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٢٩٣/١-٢٩٥، وديوان حسان بن ثابت: ٢٩٩-٣٠٨. بشرح عبدالرحمن البرقوقي.

(٨) يراجع كتابه: المنقذ من الضلال. تحقيق: محمد أبو العلا ومحمد جابر، مكتبة الجندي، القاهرة، ١٩٧٣م.

(٩) يراجع كتابه: التحدث بنعمة الله. تحقيق إليزابيث ماري، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، بدون تاريخ.

(١٠) يراجع كتابه: طوق الحمامة، تحقيق: المحامي فاروق سعد، دار مكتبة الحياة، لبنان - بيروت، ط١، ت١٩٩٢م.

(١١) يراجع كتابه: صيد الخاطر تحقيق وتعليق: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي، دار المنارة، السعودية، جدة، ط٥، ت ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، وكتابه لفتة الكبد في نصيحة الولد، دار القاسم للنشر، السعودية - الرياض، ط٢، ت١٤١٨هـ.

(١٢) قال رسول الله ﷺ: (إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئا بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار، فلا يأخذها). الحديث عند الإمام مالك: الموطأ: ١٩٧/٢ (بشرح تنوير الحوالك للسيوطي).

معاني السجود

شعر : د. عبدالله أحمد بدوي

رئيس وزراء ماليزيا

ترجمة: د . شهاب غانم - الإمارات

لست أبغي غنى بدون حدود ... طالبا عيشة الرفاه الشديد

لست أسعى إلى الملايين ليلا ... ونهاراً لنيل بذخ النقود

لا ولا كثرة الرفاق لأحيا ... مسرفا في تهتكات بليد

مطلبي الشافعي لو يتسني ... والغزالي في الوري مقصودي

كي أفك الأسرار في سور الوحي ... وفي الآي في الكتاب المجيد

وأرى سيرة النبي ضياء ... كاشفا ملهما لهدي سديد

أنا أحيا لأجل ربي، رفيقي، ... وحده حافظي وسر وجودي

فحياتي مليئة بالمعاني ... إذ بنفسي تحيا معاني السجود